ظاهرة اجتماع الساكنين بين إثبات القراء ورد النحاة

(قراءة نافع نموذجا)

أ. رابح دفرور
جامعة أدرار
الجزائر

إن المعركة الدائرة بين القراء النحاة معركة قديمة قدم القواعد النحوية و المدونات اللغوية ، فما أن بدأ النحاة في تقعيد القواعد اللغوية ووضع أصولها حتى بدأ الخلاف في الاعتبار بالشاهد القرآني الذي قبل من حيث العموم لآن القرآن عربي نزل على نبـــي عربي وقام بتلاوته ونقله قوم عرب ، وأما من حيث التفصيل فإن ثمة من أوجه القراءات ما لقي اعترضا وردا من النحاة خصوصا البصريين منهم لما قام عليه مذهبهم من اعتماد القياس و التقليل من الاعتبار بالسماع . و من ثمة أخذ أصحاب الدراسات القرآنية في تبرير و توجيه ما خيل للنحاة أنه شذوذ عربي وخروج عن الصحيح المقبول لغة فوجهـــوا القراءات المردودة و خرجوها على مخارج تستقيم مع القواعد و الأصول و من هؤلاء مثلا ابن جني الذي ألف كتابه : المحتسب في توجيه القراءات الشاذة و ابن خالويه في كتابه الحجة و هو في تـــوجيه القراءات السبع و غير هما.

و من بين المسائل التي أنكرت من طرف النحاة على القراء مسألة الجمع بين الساكنين لدي مواضع لم يجيزها النحاة و لم يجدوا لها مبررا و لا موجها. وسوف نحاول إلقاء بعض الضوء على هذه المسالة من خلال ما جاء في قراءة نافع من مواضيع جمع فيها بين الساكنين واعتراضات النحاة عليها وكيفية توجه اعتراضاتهم.

مسألة اجتماع الساكنين عند النحاة :

إن الأصل في اللغة العرب ألا يجتمع ساكنان متواليان سواء أكان ذلك في كلمة أو في كلمتين إلا في مواضع قليلة اغتفر فيها ذلك لأسباب صرفية،وهذه

المواضع ظلت محل خلاف بين النحاة ، وكان كل فريق منهم يضع لذلك حـــدا لم يضعه الثاني ، قال أبو حيان الأندلسي : (إن الكوفيين أجازوا الجمع بين الساكنين على غير الحد الذي أجازها البصريون) (1). و كان الحد الأدنى الذي حصل فيه الاتفاق بينهم هو جواز ذلك في المواضع الآتية (2).

أ – إذا كان الساكن الأول حرف مد ولين أو ياء تصغـــير و الثـــاني مشددا نحو : دآبة وخويصه (تصغير خاصة).

ب – إذا كان ذلك في الكلمات المسرودة نحو: قاف وميـــم و نـــون لجريانها مجرى الموقوف عليه .

ج – الكلمات الموقوف عليها نحو : بكر و ثوب وقال.

ظاهرة اجتماع الساكنين في قراءة نافع :

إن الملاحظ لقراءة نافع و المتأمل فيها يجدها قد اشتملت على جملة من مواضع اجتماع الساكنين على غير هذا الحد الذي ذكرنا و تمثل ذلك فيما يلي:

1 – في حال اجتماع همزتين مفتوحتين بعد الثانية ساكن حيث تبدل الهمزة الثانية ألفا و يجتمع ساكنان وذلك نحو : أأنت و (جاء امرنا) و أأنذرتهم .

2 – في كلمة (نعما) الواقعة في قوله تعالى : (**إن تبدوا الصدقـــات فنعما هي و إن تخفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم**) (3) ، و في قوله تعـــالى (**إن الله نعما يعظكم به**) (4) ، حيث قرأ نافع من راوية قالون بإسكان العـــين و تشديد الميم (5) .

3 – في كلمة (تعدوا) الواقعة في قوله تعالى : (**و قلنا لهم لا تعدوا في السبت**)(6)،حيث قرأ نافع من راوية قالون بإسكان العين وتشديد الدال(7).

4 – في كلمة (محياي) الواقعة في قوله تعالى: (**قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين**) (8) ، حيث قراء نافع بإسكان الياء من رواية ورش (9).

5 – في كلمة (يهدي) الواقعة في قوله تعالى:(**أمن لا يهدي إلا أن يهدي**)(10)،حيث قرأ نافع من رواية قالون بإسكان الهاء وتشديد الدال (11).

6 – في كلمة (يخصمون) الواقعة في قوله تعالى: (**ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون**) (12) ، حيث قرأ نافع من رواية قانون بإسكان الخاء وتشديد الصاد (13) .

اعتراضات و توجيهات:

لقد اعترض جملة من النحاة – خاصة البصريين منهم – على قراءة نافع في مسألة الجمع بين الساكنين، فكان منكم المنكر لها أصلا، و كان منهم المتهم نقلتها بالوهم و الخطأ، و كان أخفهم اعتراضا من حاول أن يجد لها مخرجا ولو كان بعيدا. فهذا الزمخشري يعتبر إبدال ثانية الهمزتين المفتوحتين الساكن ما بعد لحنا في لغة العرب فقال :(فان قلت :ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفا قلت: هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين أحدهما : الإقدام على جمع الساكنين على غير حده ...)(14) .

وإنكار الزمخشري مردود وهو في ذلك محجوج حيث جاز اجتماع الساكنين إذا فصل بينهما بمد مشبع، و الإمام نافع لا يبدل إلا بشرط إشباع المد بين الساكنين فيما وقع من ذلك .

وقال سيبويه في نحو الكلمات الأخرى: (... و إذا كان قبل الحرف المتحرك الذي بعده حرف مثله سواء حرف ساكن لم يجز أن يسكن، ولكنك إن شئت أخفيت و كان بزنته متحركا)(15). ونحى هذا النحو جمهور البصريين

حيث قال ابن يعيش لدى قوله تعالى : (**الرعب بما**) تعليقا على قراءة أبي البصري : (و حكي عنه (الرعب بما) بالادغام و هو غير جائز عندنا للجميع بين الساكنين على غير شرطه ... و أجازه الكوفيون) (16) .

وقال أبو علي الفارسي : (و من قرأ فنعما بسكون العين لم يكن قوله مستقيما عند النحويين لأنه جمع بين ساكنين الأول منهما ليس بحرف مد ولين... و لعل أبا عمرو أخفى الحركة و اختلسها... فظن السامع الإخفاء إسكانا للطف ذلك في السمع و خفائه) (17) .

ويجاب عن هذا أن هذا المسموع لم يكن عن أبي عمرو فحسب بل هو مروي عن نافع أيضا، وهو ما أقره القراء في زمن نافع و لم ينكروه عليه .

و قال أبو جعفر النحاس : (و أما الذي حكي عن أبي عمرو و نافع من إسكان العين فمحال)(18) .

و قال الزجاج : (... و لا هذه القراءة عند البصريين جائزة البتة، لان فيها الجمع بين ساكنين من غير حرف مد ولين) (19) .

وتوجه قراءة نافع أمام هذه الاعتراضات بأن هذا الذي رده جماعة من النحاة أجازته جماعة أخرى منهم، ومن هؤلاء المجيزين الكوفيون ومنهم القراء (20) و جماعة من نحاة القراء كابن سلام (21)، وكذلك بما يثبت عن بعض العرب من أنهم جمعوا بين ساكنين في نحو هذه الحالة، و من ذلك قولهم: (شهر رمضان) بإدغام الراء (22) .

وإضافة إلى ذلك أن هذه اللغة لغة النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث ورد عنه قوله : (**نعما بالمال الصالح للرجل الصالح**) (23) بإسكان العين.

وقال أبوحيان : (وليس العلم محصورا ولا مقصورا على ما نقله البصريون، فلا ينظر إلى قولهم : إن هذا لا يجوز)(24) .

و ما جاء من اجتماع الساكنين في كلمة (محياي) فقد اعترض عليه أيضا جماعة منهم فقال الزجاج : (وأما (محياي) فلا بد من فتحها)(25) وقال النحاس: (و لم يجزه أحد من النحويين إلا يونس، و إنما أجازه لأن قبله ألف ... و إنما منع النحويون هذا لأنه جمع بين ساكنين و ليس في الثاني إدغام)(26) و قال الفارسي : (هي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين، و شاذة في الاستعمال)(27) .

و وجهت قراءة نافع أمام هذه الأقوال على أنها أجري فيها الوصل مجرى الوقت و هذا ما ذهب إليه أبو حيان الأندلسي (28) ، و وافقه الخطيب الشربيني .

و الأولى – من هذا – القول بقول نحاة الكوفة لأنه ليس من الضرورة أن يكون ما وضعه البصريون حدا لا محيد عنه وأنه يجب تخريج القراءة وفقه فطالما الأمر خلاف بين النحاة فقول بعضهم ليس حجة إلا عند إجماعهم . وخاصة بعدما بدا جليا أن المعركة ليست بين النحاة والقراء وإنما هي بين النحاة أنفسهم .

والحق أن قراءة نافع كانت ذات آثار هامة تتمثل في أنها كانت شاهدة على أقوال بعض النحاة وعلى بعض اللغات العربية قبل ذلك ، غير أننا نرى في أغلب الأحوال أن جماعة من النحاة لا يرضيهم أن يخالفوا قواعدهم التي نصبوها لأنفسهم فنجدهم بين راد للقراءة و منكر لها و بين مؤول تأويلات ومقدر تقديرات بعيدة، لا لشيء إلا لأن القراءة جاءت على خلاف الشواهد الشعرية العربية التي استنبط منها قاعدته النحوية أو الصرفية ، وكان الأولى من ذلك أن يحكم القراءة المتواترة بدل الشاهد العشري الذي غاية أمره أنه ثابت آحادا، ناهيك عن بعض الشواهد التي لا يعرف قائلوها . و الحق أن رأي النحاة في مثل هذه

المسائل فيه شطط وخروج عن المنطق السليم في إثبات القاعدة اللغوية ، و ما كـان من في مترلتهم أن يكون منه ذلك (29) .

الهوامـــش

(1) -البحر المحيط لأبي حيان : 1/47-48 .
(2) -ضياء السالك إلى أوضح المسالك : 4/429-430 .
(3) -البقرة : 270 .
(4) - النساء : 57 .
(5) -التيسير في القراءات السبع ، ص: 84.
(6) - النساء : 153 .
(7) - التيسير : 98 .
(8) -الأنعام: 164 .
(9) -لتيسير ص: 108 .
(10) - يونس :35 .
(11) -التيسير : 122 .
(12) - يس: 48 .
(13) -التيسير ص: 184 .
(14) - الكشاف : 1/154.
(15) - الكتاب : 4/437 .
(16) - شرح المفصل لابن يعيش : 10/145 مج:2 .
(17) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 2/381 .
(18) - إبراز المعاني من حرز المعاني : 2/281 .
(19) - معاني القرآن وإعرابه للزجاج : 1/354 .
(20) -معاني القرآن للفراء :1/18 .
(21) -إبراز المعاني : 2/372 .

(22) - النشر في القراءات العشر : 236/2 .

(23) -أخرجه الحاكم وأحمد .

(24) - أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ، ص: 399 .

(25) - معاني القرآن وإعرابه للزجاج : 311/2 .

(26) - الجامع لأحكام القرآن : 99/7 .

(27) - البحر المحيط : 262/4 .

(28) - المصدر نفسه :262/4 .

(29) -انظر : دفاع عن القراءات في مواجهة الطبري المفسر ، ص: 15-16 .